فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٤ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

على أن الروح « الديونيزومى » يكاد يكون فاشياً فى كل أصقاع العالم القديم . وهو عند البرابرة كان يزجيهم إلى الانهماك فى المنكرات ، وإشباع البهيمية الانسانية باللذائذ . واليونان برغم حضارتهم وبعدهم عن البربرية سرت إليهم العدوى ، ومشى فيهم هذا الروح . ولكن انهماكهم لم يكن انهماكا بهيمياً . أقاموا الأعياد والأندية حيث تنطلق الطبيعة ويذهل الانسان متحداً بعاطفته مع الوجود . ومن هذا الانهماك تولدت المأساة اليونانية .

والمأساة اليونانية يرجع أصل نشأتها إلى فريق « الساتير » وهؤلاء عند اليونان هم أرواح من الطبيعة تحيا ، ولا يتسرب إليها الفناء ؛ تعيش بعيدة عن الحضارة ، وظهورها فى شعب متحضر يقضى على حضارته ويقذف بالحواجز التى تفصل الانسان عن الطبيعة . وهم يظهرون أن الطبيعة ثابتة قوية مخصبة برغم تقلب الأمم وتبدل الشعوب . واليونان اعتقدوا أن هذا الفريق مخلوق طبيعى مجرد من كل براعة ، ولكنه ليس بهيمى . يتجلى فيه شىء من السمو الالهى ، وهو رمز الغريزة الأكثر قوة وسيطرة على الانسان . هو سريع الهيام يذهله تقرب الاله منه . كثير الاشفاق والعطف لأنه يقاسم « ديونيزوس » آلامه . وهو يسالم حكمة الطبيعة . وهو رمز خصب الحياة التى يعبدها اليونان عبادة دينية . كان هذا الفريق يبدو فى بدء نشأته وهو نشوان « بالسكر الالهى » ويرقصه ، وموسيقاه تغادر روح الناظر فى شبه ذهول عميق ، يمحو من نفسه ذكر الحضارة ، ويجرده عن ذاته حتى يرفعه إلى مرتبته ، ويشركه فى ذهوله وسكرته . حتى إذا وجبت القلوب واستسلمت النفوس يلوح وراء هذا الفريق خيال الاله « ديونيزوس » وهذا السكر الالهى قد ولد خيالا شعرياً لم يكن فى حقيقته إلا تعبيراً خاصاً عن حالة نفسية واضحة ولدها هذا السكر الصوفى . فالمأساة اليونانية هى بحقيقتها موسيقية شعرية . وهى هتاف ظفر الارادة التى تشعر بخلودها ازاء تقلب الكائنات وتحولها . بطل كل مأساة هو الاله « ديونيزوس » ، وهى عاطفية لأنها نشأت لتكون أنشودة فى مدح الاله . ثم تطورت المأساة لتكون أشد تأثيراً فى المخيلة ، فأصبحت صورة رمزية لسحابات يلوح بينها الخيال الالهى الذى يظهر على السكارى الهائمين فى الوادى ، السكارى بالاله . ولكن « ديونيزوس » لم يعد يظهر بشكله الالهى . وإنما يظهر بهيئات الأبطال الذين يتمثل فيهم تحت قناع البطل « كيرومونى » أو « أوديب » . و « ديونيزوس » هو البطل الحقيقى فى كل مأساة ، يبدو بأشكال مختلفة . وهو فى ظهوره هذا يشبه الانسان فى حياته ، يتيه ويضل ، يناضل ويتألم . « ديونيزوس » هو هذا الاله المتألم الذى تكلمت عنه الأساطير . هذا الاله الذى يحس فى نفسه بآلام الفردية . هذا الاله الذى قالوا عنه إنهم جزأوه وهو صغير وعبدوه باسم الاله « زاكروس » ومن ابتسامته تولدت الآلهة ، ومن دموعه نشأ الرجال

إن روح هذا الاله قد فتحت للعلم مجالاً عند اليونان . فهم بعد أن أطلقوا الأرواح من التشاؤم بتأملهم للجمال أو بشعورهم بخلود الارادة ، ذهبوا إلى طريقة ثالثة ، هى المعرفة العقلية للوجود وأجزائه . فجاء العلم حليفاً ثالثاً معهم يناضل التشاؤم . فبينما يقول الفنان للحياة « يليق بنا أن نحياكِ ، أيتها الحياة ! لأن صورتك جميلة » يقول العالم لها « أنا أريدك أيتها الحياة ! لأنك جديرة بأن تعرفى . . . » وهكذا وجد العالم فى اكتشافاته العلمية من اللذة والبهجة ما يجده الفنان فى أوهامه وأخيلته . وتآزرت هذه الأوهام كلها لتجعل وجه الحياة المشوه جميلاً . ويجب ألاّ نجحد أن فضيلة العلم إنما هى تتمثل فى البحث الدائم والتنقيب المتواصل . لا فى الحقائق التى يكتشفها . أو النتائج التى يبلغها . وخطيئة العلم القطعى هى أنه لا يقف عند معرفته للوجود واقتناعه بما أدرك وتفهم من أحاجيه وإنما يثب إلى إصلاحه وإتمامه ، فتسعده حالته

الأولى مادام يبحث وينقب ، ويشق فى الحالة الثانية ما دام يطمح ويطمع إلى ما لا قبل له به . يعتقد ببساطة نفسه أن الوجود سهل فهمه بجملته وبأجزائه ، وأن رأس كل فضيلة هى المعرفة ، وأن الجهل هو مصدر كل بلاء ، وبالعلم وحده يستطيع أن يبلغ الانسان ما يشاء من أمهات الفضائل

جاء سقراط وهو أعظم مفكر يونانى جاحد للوحى ، يؤمن بأن العقل وحده يقوم مقام الغريزة والفطرة فى الحياة . والرجل العاقل له من عقله سلاح يدرأ عنه أخطاء الغريزة وضلال الفطرة . سلك سقراط طريقاً خالف به قومه واستطاع فى النهاية أن يقهر معاصريه بسمو منطقه ، وباختياره لمصرعه الذى لقيه . ترك الحياة هادئ النفس ، لا يعضه أسى ولا يقرعه ندم ، كأنما كان يثبت بهذا المصرع إيمانه فى الحياة إيماناً متفائلاً لا يتضعضع ولا يتزعزع

هذا هو عقل سقراط الذى هزم « المأساة عند اليونان » وحق لهذه المأساة أن تتلاشى أمام مجلس العقل ، لما يطغى عليها من تعاليم لا يجمع بينها قياس ولا منطق . يستند كل ما فيها من تأثير على الموسيقى . المأساة لا توحى شيئاً ولا توضح عن أية حقيقة نافعة ؛ وقد تجئ فاحشة المنزى ، أو ليس يبدو بعد هذا أنها تعمل على تحطيم أجل النماذج التى تخلقها الانسانية . فاذا كان هنالك أواصر متينة بين العلم والفضيلة والسعادة الحقيقية — كما يريد العلم التفائل — فان المنزى الفاجع يغدو بدعة خطرة

ان سقراط لم يهدم فن المأساة وحده ، بل هدم كل البراعة اليونانية . كان المثال الذى تجسد فيه العقل يوم كان اليونان يتبعون بأهوائهم شريعة الفطرة والغريزة . كانوا يريدون الحياة قوية جميلة ، وهو يريدها منطقية ، تفقه نفسها بنفسها ؛ كان مظهر سقراط بمظهر المزدرى لروح عصره ، وهو وحده أعلن بين معاصريه أنه لا يدرى شيئاً ، وأنه على حق فى خصامه معهم . يعرج على نوادى الشعراء والمفكرين والخطباء والمطلين ، فيقول : إن هؤلاء الواثقين بأنفسهم يفكرون ويجادلون بدافع الفطرة وحدها ، وهم لا يفقهون ما يصنعون . تراه حيثما توجه وأينما انطلق لا يبصر إلا وهماً باطلاً ، وخطأ فاشلاً ، مما اضطره أن يعلن أنه مقدم على انشاء حضارة جديدة يديرها العقل وحده . فهدم الحضارة الأولى ولم يبق على شىء منها ، فعل ذلك وهو لا يشعر بأن العالم الذى هدمه هو أسمى من العالم الذى راح يبنيه بعقله

* * *

هذا ملخص ما رآه نيتشه فى « المأساة اليونانية » وهو جد آسف على ذهاب ذلك الماضى النبيل . وقد لا يغنينا أن ننظر إلى مذهب « نيتشه » من حيث تعلقه بالتاريخ . فهو ليس فى الحقيقة إلا مذهباً يستخلصه من بعض نظراته المختلفة إلى أدب اليونان . وللعلم الحق وحده أن يتقبل هذه النظرات أو يأباها

يقول نيتشه عن شوپنهاور : « انا بعيد جداً عن الاعتقاد بأننى فهمت شوپنهاور ، ولكنى مؤمن جد الايمان بأن شوپنهاور قد أعانى على تفهم نفسى » وحال نيتشه فى درسه العبقرية اليونانية قد تشاكل هذه الحال ، فهذه الدراسة قد كشفت عن تفكيره وأبانت عن منحاه فى الحياة . وهذه الارادة التى يذرع بها (ديونيزوس) مجابهاً أخطار الموت والشقاء والألم تعبر عن عاطفة عميقة من أسمى عواطف « نيتشه » ؛ ومهما كانت قيمة كتابه هذا فهو بعد هذا كله كتاب خالد يتلو علينا كيف شعر نيتشه بذاته حين درس براعة اليونان

(يتبع)

خليل شيراوى

الايضاح للخطيب القزوينى

فى علوم البلاغة

وشرحه للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

المدرس بكلية اللغة العربية

طبعته المطبعة المحمودية بالأزهر

وهو يغنى الطالب عن الرجوع إلى الحواشى والتقارير التى وضعت على الايضاح . وقد طبع منه الجزء الأول وثمنه عشرة قروش ساغ على ورق جيد عال — وقريباً يصدر الجزء الثانى

ويطلب من المكتبة المحمودية التجارية

بميدان الأزهر صندوق البريد رقم (٥٠٥) مصر

تليفون نمرة ٥٣٠٦٧